حتى يصبح التعلُّم مرئياً وملموساً
(الأطفال. في مواقف التعلم. فرادي وجماعات)

تحرير
كلاوديا جوديسي كارلا رينالدي مارا كريشيفسكي

ترجمة: د. علي عاشور الجعفر

الناشر: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، 2013
(370) صفحة

عرض ومراجعة: أ. د. فيولا الببلاوي
قسم علم النفس التربوي - كلية التربية - جامعة الكويت

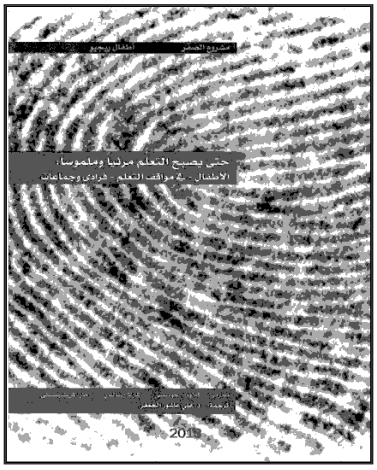

تجدر الإشارة ابتداءً، ونحن بصدد عرض كتاب "حتى يصبح التعلّم مرئياً وملموساً: الأطفال في مواقف التعلم - فرادي وجماعات"، إلى ذلك التوجه الذي تركز عليه "الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية" وهو الاهتمام بالتجارب والخبرات العالمية الرائدة والواعدة في تعلم الأطفال ونموهم وتقدمهم، وفي الكشف عن مكنون إبداعاتهم وحسن توظيفها في عالم جدير بالأطفال.. فهذا الكتاب يأتي استكمالاً واستحقاقاً للترجمة العربية التي قدمتها "الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية" لنظرية "لوريس مالاجوزي"، والتي وثقتها في كتاب "الأطفال ولغاتهم المائة"، والتي تجسدت وتطورت فيما صار يعرف منذ أكثر من نصف قرن بمقاربة ريجيو وأطفال ريجيو ومدارس ريجيو في منطقة إيميليا رومانيا ذات المكانة المدنية والثقافية والتربوية البارزة في إيطاليا، وإشعاعاتها على تطور الفكر التربوي والنفسي في العالم، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية، ومن خلال جامعة هارفارد خاصة. ولهذا مغزاه الخاص عن مكانة مقاربة ريجيو وتعميم خبراتها من خلال مراكز ومؤسسات ومدارس تُعرف بمدارس ريجيو وأطفال ريجيو في أنحاء عديدة من العالم.

يقرر "هوارد جاردنر" (جامعة هارفارد) أنه لا يتردد في تصنيف مراكز رعاية الطفولة ورياض أطفال ريجيو إيميليا، والمستلهمة من أعمال لوريس مالاجوزي، لتكون في مصاف بعض المدراس التي اكتسبت على مر التاريخ جودة أسطورية، مثل أكاديمية أفلاطون ومدرسة ياسنانيا بولانيي التي أسسها الكونت ليو تولستوي على أراضي ضيعته، وكلية المعامل في جامعة شيكاغو التي يترأسها كل من جون وأليس ديوي، ومجموعة المدارس المعاصرة المستلهمة من كتابات ماريا مونتيسوري ورودلف ستاينر وجان بياجيه.

هذا الكتاب "حتى يصبح التعلُّم مرئياً ملموساً.." هو توثيق لخبرات علمية وعالمية مشتركة بين ريجيو إيميليا (إيطاليا) وجامعة هارفارد (الولايات المتحدة الأمريكية)، متضمناً بتحليل كيفي وحي ذخيرة غنية من إبداعات الطفولة ولمعاني الطفولة في كل ما ينتجه الأطفال، ويستجيبون به، ويعبرون عنه بأشكال مختلفة في تنوع يعكس تعلماً صادقاً وبأساليب مميزة من التعلم النشط والإبداعي..، وذلك وفق منظور عن الطفل بأنه يتمتع بالأهلية وبقابليات التعلم، وعلينا لذلك إتاحة الفرص له حتى يتسنى لكل طفل الاستفادة من إمكانية تفرده، وتعبيره عن نفسه، وإثراء تجربته وتطويرها؛ والمدرسة هكذا تكون هي مكاناً حيوياً يمنح جميع الأطراف ذات الصلة فرصاً مواتية لاستكشاف أنفسهم وسجيتهم وطبيعتهم.

لقد تحققت هذه الخبرات العلمية العالمية في سياق شراكة وتعاون من خلال ما يعرف "بالمشروع صفر" في أواخر التسعينيات بين كلية التربية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية ومراكز رعاية الطفولة ورياض الأطفال في ريجيو إيميليا بإيطاليا، وتأسيساً على ما تكتنزه هاتان المؤسستان العملاقتان من خبرة متميزة متراكمة تمتد لأكثر من سبعة عقود من تطوير الفكر التربوي والبحث العلمي والممارسات والخبرات التربوية المتجمعة ومناصرة الأطفال، ودعم حقوق الطفل. ففي عام 1997 بدأ هذا التعاون، ومن خلال منظومة من الأبحاث، متمركزاً حول محور رئيس، وهو طبيعة "التعلم الجماعي" وكيفية توثيقه وإظهاره ليكون مرئياً، ودعمه وتقويمه. ومن ثم فإن الأبحاث المتضمنة في هذا الكتاب تُعْنَى في المقام الأول بالجمع بين التعلم الجماعي والتوثيق، وحيث يسهم التوثيق المنهج والهادف للطرق التي يتم بموجبها تطوير الأفكار والنظريات والتفاهمات من خلال مجموعات التعليم في ضمان التفاعل بين كل من التعلم الجماعي والتعلم الفردي، وتعزيز الالتزام بالمميزات الفريدة لكل منهما. فعندما يكون التعلم موثقاً، يتمكن الأطفال من مراجعته وتفسير تجاربهم التعليمية، وكذلك التأمل في كيفية تطوير تلك التجارب؛ ومن ثم يصبح التفسير والتأمل وجهين رئيسيين للتوثيق، حيث يسهمان أيضاً في إيجاد بيئات التعلم المستقبلية، وفي اختيارات المعلمين في تصميم بيئات التعلم وسياقاتها.

لقد ركز التعاون البحثي على عدد من الإشكاليات المتعلقة بطبيعة التعلم في مجموعات، وبالطرق التي يمكن بها التوثيق والتقويم من خلالها لدعم مثل هذا التعلم: متى تصبح المجموعة مجموعة للتعلم؟ تُعرف "مجموعة التعلم" في هذا المشروع بأنها "مجموعة من الأشخاص المنشغلين انفعالياً وفكرياً وحسياً بحل المشكلات أو ابتكار المنتجات أو خلق المعاني، وحيث يقوم كل فرد من خلال هذا الجمع بالتعلم الذاتي وكذلك بالتعلم عبر طرق تعلم الغير".

بهذا المنظور يتميز التعلم الجماعي بعدة سمات أساسية، وهي:

- تضم مجموعات التعلم أعضاء من الأطفال والكبار على حد سواء.
- يساعد توثيق تجارب الأطفال التعليمية في إظهار التعلم وجعله مرئياً، فضلاً عن قيامه بتشكيل ما يحدث من تعلم.
- ينشغل أعضاء مجموعات التعلم بالأبعاد الانفعالية والحسية، وكذلك الفكرية للتعلم.

- تركيز التعلم في مجموعات التعلم يمتد ليتجاوز تعلم الأفراد وصولاً كذلك إلى خلق كيان من المعرفة الجماعية (كرايشفسكي وماريديل: 286- 296).

تلك تجربة تتسم بالتحدي بزغ معها نوع من "المعرفة الجماعية"، وحيث يكون بإمكان مجموعة التعلم أن تكون بمثابة "منظومة تعلم" تتصل عناصرها بعضها ببعض، وبفضل التأملات المستلهمة من مواد التوثيق.

تعكس هذه المعاني عنوان هذا الكتاب "حتى يصبح التعلم مرئياً..." متضمناً هكذا ثلاثة معان رئيسة: (جاردنر: 29) أولها إبراز اهتمام ريجيو الكبير بالعالم المرئي، أي بما يمكننا مشاهدته وفهمه ونقله للآخرين في أشكال بيانية. ويعكس هذا العنوان. ثانياً، الاستثمار في التوثيق باعتباره أداة قوية للتواصل مع جميع الأطراف المعنية وذات الصلة. وأخيراً، ومن منظور تجربة شخصية لجاردنر، فإنه يمثل أفضل جهودنا لبيان ما قد تعلمناه من خلال هذا التعاون.. تطلعاً إلى أن يصبح هذا التعلم مرئياً ـ ومسموعاً وملموساً ـ من خلال ما يقدمه هذا الكتاب من خبرات مبدعة وسرديات صادقة.

ليس الهدف من هذا الكتاب ـ كما تقرر "كارلا رينالدي" في تقديمها للطبعة العربية له ـ مقصوراً على عرض نتائج البحوث المشتركة بين ريجيو إيميليا وجامعة هارفارد، ولكنه بالأحرى يثير تساؤلات بشأن مركزية العلاقة بين التعليم والديمقراطية. إن عملية التعليم من أهم مهام الديمقراطية، كما أن الجهل هو في الحقيقة أكبر تهديد للديمقراطية.. إن الجهل الخطير، الذي يقوض معنى التعليم والديمقراطية نفسها من الأساس، هو غير القادر على التغيير أو الإقناع أو الاقتناع؛ لأنه لا يعترف بهوية أو حقيقة أخرى إذا لم تكن تخصه. الجاهل هو الذي يخلط بين الآراء والهوية، وهو الذي يعتقد بأن لديه رأياً، وأن رأيه هو الأفضل... إن المجتمع المثقف والمتعلم هو المجتمع الذي يقوم بتوفير الأوقات والأمكنة لعمليات المناقشة والحوار والمناظرة.. والذي يكون مفهوم التضامن مصحوباً بمفهوم المشاركة.. فلا إقصاء لأحد من المشاركة في عملية بناء المعرفة والقيم المشتركة ـ عملية تعليم المواطنة..، إنه المجتمع الذي يتثقف ويتعلم، ويتغير بأيدي مواطنيه.

ذلك هو مجتمع ريجيو.. وثقافة ريجيو، وحيث استقطبت ريجيو إيميليا اهتمام التربويين من شتى أنحاء العالم على مدى الأربعة عقود الأخيرة..، ومن ثم كان التلاقي والتعاون بين ريجيو إيميليا وجامعة هارفارد من خلال "مشروع الصفر" بجامعة هارفارد. وهنا نُلقي بعض الضوء على "مشروع الصفر" لفهم السياق الفكري والإبداعي الذي تحقق فيه هذا التعاون، والذي يعكسه هذا الكتاب.

تأسس "مشروع الصفر" كمنظمة بحثية عام 1967 بكلية التربية بجامعة هارفارد على يد الفيلسوف نيلسون جودمان، بدأت ببادرة لبرنامج بحوث لتطوير التعليم في مجال الفنون والآداب. وقد أطلق جودمان هذه التسمية (مشروع الصفر) لأنه "ليس هناك شيء منظم نعرفه عن تعلم الفنون".

تبرز ثلاثة روافد رئيسة تصب جميعها في مجرى مشروع الصفر ونواتجه الملموسة في "كيف يصبح التعلم مرئياً وملموساً، وهي:

1) نظريـة الذكاءات المتعددة لهـوارد جاردنر في مطلع الثمانينيات، وكما ضمنها في كتابـة "أطـر العقـل"، والتي تدعـو إلى أن جميع البشـر يمتلكـون ما لا يقل عـن ثمانية أو تسـعة من الذكاءات المنفصلة، ونشـترك فيها جميعاً بوصفها جزءاً من طبيعتنا البشـرية. واستلهاماً لهذه النظرية توجهت جهود عديدة لتنمية ذكاءاتنا المتعددة واستثمارها في بناء المناهج الدراسية والبرامج التربوية والثقافية.

2) ويبدو الرافد الثاني في مجموعة من المشاريع المنبثقة عن مشروع الصفر؛ ففي خلال ما يقرب من نصف قرن، أصبح مشـروع الصفر من أكبر المؤسسات الأمريكية وأطولها عمراً للبحـث في الإدراك والتعلم، وبخاصة الفنون، وحيث أجريت مئات الدراسـات والمشـاريع ضمـن هذا الإطار، من أبرزها القيادة في "ذكاء المشـاريع" في فنزويلا، و"دفع الفنون" في كل من الصين والولايات المتحدة، و"مشـروع سـبيكتروم" لتطوير مناهج الأطفال الصغار وتقييمهـم، ومشـروع "التربية من أجل الفهـم" منذ مطلع التسـعينيات بالولايات المتحدة ومناطق أخرى حول العالم.

3) تركيز مشروع الصفر على أفضل السبل لتقييم تعلم الطلاب، مع الاهتمام الخاص بكيفية رصد الذكاءات المتعددة. وكذلك التركيز على أفضل السـبل للفهم الأفضل في مختلف المجالات والتخصصات؛ فالفهم ليس مجرد الحفظ لبعض الحقائق والمفاهيم، ولكنه يتجاوز هذا المسـتوى إلى كونه النشـر الملائم للمعرفـة في المواقف المتجددة، وحيـث يعد الفهم أداءً يسـتخدم مجموعة الذكاءات التي يظهرها الشخص لنفسه وللآخرين من أجل الاستفادة من الأشياء التي يتعلمها.

هذه الروافد الثلاثة التي تصب في مجرى مشروع الصفر هي ذاتها التي تفاعلت مع تجربة ريجيو إيميليا، وحيث يتضمن هذا المشـروع عملاً تربوياً وبحثياً مشـتركاً بين كل من "ريجيو إيميليا" Reggio Emilia (RE) ، و"مشـروع الصفـر" Project Zero (PZ) – ويحمل فـي كل وحدات "حتى يصبح التعلم مرئياً وملموسـاً" رمزاً مشـتركاً، وهو: (PZ)-(RE) في كل أجـزاء وفصول هذا الكتاب، كما يعلو صفحة الغلاف تحديداً بالمصدرين الراعيين: مشـروع الصفر .. أطفال ريجيو.

لقـد حافظ "مشـروع الصفر" PZ، والذي تعاقب على رئاسـته أسـماء مرموقة، مثل "نيلسـون جودمان" و"ديفيد بيركينز" و"هوارد جاردنر" و"ستيف سيديل" و"شاري تيشـمان"، علـى مـدى السـنوات منـذ انطلاقـه عـام 1967 حتـى الآن، على تركيـزه على مشـروعات البحوث في مجالات الفنون والآداب، وليمتد كذلك ليشـمل التعليم ومجموعات متنوعـة وواسـعة من الأعمـار والتخصصـات الأكاديمية ومواقـع العمـل، وتطوير أفضل الأسـاليب والممارسات لمساعدة الأفراد والمجموعات والمؤسسـات على التعلم بكل ما أوتيت من قدراتها وإمكاناتها، واستكشـاف كيفية التعليم للفهم، واستخدام المعرفة لحل المشكلات غير المتوقعة، وتشـجيع التفكير الإبداعـي، والارتباط بدنيا العمل وحاجات سـوق العمل، واسـتثمار قوة التكنولوجيـا الجديدة في مجال التعلم المتقدم، والدخـول إلى عوالم جديدة من المعرفة.

ويوفـر "مشـروع الصفـر" إتاحة للمعرفـة لإنجازاتـه وتوثيقها في بحوث منشـورة،

ومجموعة متنوعة من الكتب والمطبوعات والنشرات والمواد، وتنظيم مؤتمرات وندوات واجتماعات وورش عمل، وإدارة معاهد ومؤسسات بحثية في مجالات الاهتمام المختلفة بالمشروع ـ مما يمكن الاطلاع عليه من خلال الموقع الإلكتروني: www.pz.harvard.edu.

يركز الكتاب "كيف يصبح التعلم مرئياً وملموساً" على عدد من الإنجازات والإسهامات في مجالات تعلم الأطفال وإبداعات وجودهم الاجتماعي والشخصي، وما بين عالمي الصغار والكبار من تفاعلات وإبداعات بهذه المعاني التي تنشرها ريجيو إيميليا ومشروع الصفر واقعاً مُعاشاً ومُستلهماً من رؤى هذين المصدرين، ومستمداً من ذلك الفيض الغني من الدلائل البحثية التي تقودها ريجيو إيميليا في إيطاليا وجامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي غيرهما من أماكن ومؤسسات عديدة بالعالم. تتضمن هذه الإنجازات والإسهامات ما يلي:

- إطار تصوري يقود الفكر والبحث العلمي فيما يتعلق بالدراسات المستقبلية لتطوير أفضل الأساليب والممارسات للتعلم، وتركيزاً خاصاً على التعلم الجماعي.
- إدارة مجموعات التعلم وتوظيفها في تعلم الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة.
- الاستخدام التربوي والإنمائي للتوثيق للتعلم في سياق مجموعات تمكيناً للأطفال من المراجعة والتفسير والتأمل لتجاربهم وخبراتهم التعليمية، وللمعلمين من تصميم بيئات التعلم، وتيسير وتعزيز خبرات التعلم، ووثوق الرابطة بين البيئة والتعلم الجماعي.
- مشاركة الكبار ـ آباءً ومعلمين ـ في مجموعات التعلم وفي توثيق عمليات تعلم الأطفال، وحيث يكون الكبار في سياق هذه المشاركة معلمين ومتعلمين في خبرة غنية وفريدة من التعلم التعاوني.
- التوجه نحو إزكاء الدعم من البيئة الثقافية للأفكار الإبداعية والممارسات الإيجابية التي تقودها، وفي شراكة عالمية كل من ريجيو إيميليا وجامعة هارفارد لإرساء أفضل الشروط المواتية للتعلم النشط والإبداعي لمجتمع التعلم ـ صغاراً وكباراً، أفراداً أو مجموعات أو مؤسسات.

أما الكتاب من حيث المحتوى، فهو يتضمن ثمانية عشر فصلاً، تحتويها ثلاثة أجزاء تركز على قضايا التعلم الجماعي والتوثيق من منظور الفكر التربوي لريجيو إيميليا؛ وعرض النتائج الأولية للشراكة البحثية مع مشروع الصفر حول قضايا التعلم في الطفولة المبكرة استناداً إلى تجربة ريجيو؛ ثم إبراز الروابط المشتركة والمقاربات المتداخلة بين النظريات والتطبيقات الأمريكية، وتلك التي تقودها ريجيو إيميليا، ومغزى الأبحاث المشتركة في الإثراء المتبادل لكل من الخبرة الأوروبية والأمريكية وانعكاساتها على الفكر التربوي والممارسات التربوية في العالم. وفي إطار هذه الأجزاء الثلاثة والثمانية عشر فصلاً، يرتكز الكتاب إلى سبع سياقات متنوعة لرؤى وآفاق التعلم الجماعي، تستقطب في مجملها محتوى هذا الكتاب، وحيث توفرت في إطارها ذخيرة غنية ومتنوعة لممارسة التعلم الجماعي، وتحمل مسمياتها واقع هذه الممارسات، وهي: اليد الصحيحة، والسعر الصحيح، والأداء المسرحي، وأولياء الأمور والإنسان الآلي، ورسالة جماعية، والعجلة

والحركة، وتعليقات الأطفال على مجموعات التعلم وتعلم المجموعات.

يستهل الكتاب تقديمه بمقدمة خاصة للطبعة العربية من "كارلا رينالدى" - أحد مؤلفي هذا الكتاب - تبرز فيها مركزية العلاقة بين التعليم والديمقراطية، والحوار والمناقشة، والمشاركة والتضامن والاتحاد مع الآخرين الذين نمنحهم ونمنح أنفسنا الكرامة، درءاً لإقصاء أو استبعاد للآخر بل مشاركة في عملية بناء المعرفة والقيم المشتركة.. وتعلم للأخذ والعطاء، وبناء معرفة جديدة وواسعة الانتشار، ومستقبل مشجع يتجاوز التوقعات. ومن ثم فإن عملية التعلم مدى الحياة ليست مشروعاً تربوياً فقط، ولكنها مشروع المجتمع.

تتضمن استهلالة الكتاب أيضاً دليلاً للقارئ يعينه على حسن التوجه في جوانب الكتاب وصفحاته وكيفية استخدامه والاستفادة منه، إضافة إلى مقدمتين أحدهما لكارلا رينالدي (عن ريجيو إيميليا)، والأخرى لهوارد جاردنر (عن جامعة هارفارد)، وحيث تعرض المقدمتان لسيرة ومسيرة هاتين الجبهتين العالميتين في ريادة الفكر التربوي والبحث العلمي في الطفولة ومراكز ومؤسسات رعاية الأطفال ورياض الأطفال، وما يتعلق بكل ذلك من قضايا وآفاق عديدة.

يتناول الكتاب في الجزء الأول التعلم الجماعي والتوثيق في إطار عدة قضايا ذات مغزى في مقاربة ريجيو إيميليا، من أبرزها "مراكز رعاية الطفولة ورياض الأطفال باعتبارها أماكن ثقافية" تتجاوز مجرد الخدمات في تلك المرحلة إلى دورها في خلق الثقافة، ومن ثم كون المدرسة في المقام الأول هي مكان يشهد العمل على القيم نقلاً ومناقشةً وبناءً، ومن ثم تأكيد تلك الصلة الوثيقة بين التعليم والقيم، وجعلها قيماً أساسية ومرئية وقابلة للمشاركة. فالقيم تحدد الثقافة وتتحدد بها.

وتبرز كارلا رينالدى بعض القيم التي أسهمت في بناء تجربة ريجيو، وتنمية أطفال ريجيو، وبخاصة قيمة الذاتية التي تنظر إليها من منظور النزاهة والكمال. وتتصل قيمة الذاتية، بما تؤكده من تفرد وخصوصية لكل فرد، بصلة وثيقة مع قيمة الاختلاف: اختلاف النوع والعرق والثقافة والعقيدة. فالاختلاف لأننا أفراد، ولأننا جميعاً بطبيعة الحال مختلفون. ولهذا مضمونه التربوي، فالاختلاف المجرد ليس قيمة في ذاته، ولكنه يصبح كذلك إذا استطعنا خلق بيئة وثقافة وإستراتيجية ومدرسة من الاختلافات. وتبرز أيضاً قيمة المشاركة والمشاركة بوصفها قيمة، وحيث تعني في الأساس الشعور بحس الانتماء والمساهمة؛ وكذلك قيمة الديمقراطية الراسخة في مفهوم المشاركة. ثم قيمة التعلم، وقيمة اللعب والمتعة والعواطف والمشاعر.. تطلعاً في هذا السياق إلى النظر في نوع الثقافة التي يجب أن نسعى لبنائها، والمدارس التي يستحقها أبناؤنا، وأين المستقبل، وأين يقع "الجديد"، وما شكل المستقبل الذي يمكن تأسيسه معاً؟ تخلص كارلا رينالدي إلى التأكيد على التربية الثقافية باعتبارها في الأساس نمطاً من التفكير التربوي - العلائقي، والذي تطلق عليه "التفكير المستند إلى مشروع" - أي طريقة التفكير التي تقبل الآخر، وتتقبل الشك، وتعي وتتقبل الخطأ وعدم اليقين، وتعتد بالحدود بوصفها أماكن تولد الجديد، لا بوصفها مناطق هامشية. ومن ثم فإن الجديد يكمن في تدعيم العملية التربوية استناداً إلى قيم الكرامة الإنسانية والمشاركة والحرية.

يولي الكتاب أهمية خاصة في ضوء توجهات ريجيو إيميليا ومشروع الصفر لقضايا التوثيق والتقييم والعلاقة الوثيقة بينهما ودورهما الأكيد في عملية تعلم الأطفال، وما ينطوي عليه التوثيق من عمليات للتأمل في خبرة التعلم الفردي والجماعي، ومن تغذية راجعة تعزز ناتج التعلم وإدراكه كنواتج موثقة. ولا يقتصر التعلم الجماعي على الأطفال، ولكن "المدرسة هي أيضاً مكان للتعلم الجماعي للآباء" كما يتناول فصل باولا كالياري وكلاوديا جوديسي تأكيداً على العلاقة بين الأسرة والمدرسة كركن أساس من مشروع ريجيو إيميليا للطفولة المبكرة، وحيث إن مشاركة الأطفال والأسر والمعلمين هي إستراتيجية تربوية لأسلوب عمل المدرسة. والمدرسة بجانب كونها أيضاً بيئة تعلم للآباء، فهي كذلك بيئة بحثية حقيقية، وحيث تطرح كارلا رينالدي في فصل "شجاعة يوتوبيا" رؤى حقيقية للتفاعل المعلمين والمتعلمين في تطوير طرق تعلمهم وبناء المحتوى المعرفي لتعلمهم.

يتناول الجزء الثاني من الكتاب سرديات متنوعة وملاحظات حية عن إمكانية جعل التعلم الفردي والجماعي مرئياً استناداً إلى تجربة ريجيو حول مجموعات التعلم في مراحل الطفولة المبكرة. وتعتمد فصول هذا الجزء على التوثيق المرئي والتحريري الذي تم القيام به من خلال البحث التعاوني المشترك الخاص بالتعلم الجماعي لدى الأطفال والكبار، وذلك من خلال عملية يُطلق عليها التربويين في ريجيو إيميليا "البحث التربوي". فالمعلمون يشاركون الأطفال في سياق أنشطة التعلم المختلفة، ويراقبون تقدمهم في تعلمهم، وحيث تكون الفصول والمدرسة بيئات تعلم يمكن رصد ومتابعة وتقويم تعلم الأطفال ونموهم وعلى أساس من المشاركة بين الأطفال والمعلمين والوالدين. لذلك فإن عملية البحث التربوي على هذا النحو هي عملية تعلم ونمو للمعلمين وللمتعلمين وللأسرة، بقدر ما هي عملية مستمرة ومتطورة من الافتراضات والتوقعات والتفسيرات، وباستخدام اللغات المتعددة لإظهار عملية ونتائج البحث كي يكون التعلم مرئياً، وحيث تعرض نسخاً من أحاديث الأطفال وإنتاجاتهم، وقصصاً عن التعلم الفردي والجماعي، وشرائح العرض والصور الفوتوغرافية ولوحات التوثيق التي تتوزع على جدران الفصل، إضافة إلى العروض الرسمية وغير الرسمية المقدمة إلى مجموعات المعلمين الآخرين.

لقد قام المعلمون من رياض أطفال ريجيو بتأليف الروايات والقصص والعروض التي يتناولها الكتاب في هذا الجزء، واجتمعوا معاً حول دائرة مستديرة لتأمل تجربتهم مع التعلم الجماعي، وحيث توصلوا إلى تحديد "عناصر متكررة" مهمة من خلال ملاحظاتهم وتوثيقاتهم، تشاركوها مع فريق مشروع الصفر، وطرحوها للمناقشة والتأمل والفحص المتعمق. وهنا يلتقي باحثو ريجيو ومشروع الصفر في تبادل الخبرات ووجهات النظر، وتوليد أفكار وافتراضات جديدة، وتوثيقها في نواتج من البناء المعرفي والخبري ودلائل مرئية وملموسة للتعلم كعملية وكناتج.

أما الجزء الثالث من الكتاب فهو نقلة ملموسة لخبرة ريجيو إيميليا وتفاعلها مع الخبرة الأمريكية عملاً على إيجاد صيغة إبداعية تجمع في طياتها ذلك الثراء البحثي والخبري لكل من ريجيو إيميليا ومشروع الصفر بجامعة هارفارد، وكما يتضح ذلك مما يقدمه بن ماردیل عن "التنقل عبر الأطلسي" وتأكيده على العوامل الثقافية التي ينبغي أن تؤخذ في

الاعتبار في إيجاد فهم مشترك قائم على استيعاب ريجيو للنظريات والممارسات التربوية، كما تطورت في السياق الأمريكي، وللأفكار التي جرى غرسها في الوجدان الأمريكي.

ولكن تبقى بعض التحديات التي قد تسبب للتربويين الأمريكيين نوعاً من الصعوبة في استيعاب تجربة ريجيو إيميليا. فمن الواضح ـ وكما يقرر بن ماردیل ـ أنه لا يمكن ببساطة تعبئة وتغليف ما يحدث في ريجيو وشحنه عبر الأطلنطي " (ص 281).. ولماذا تمثل أفكار مجموعات التعلم والتوثيق وبخاصة تلك التي تمارس في ريجيو إيميليا تحدياً بالنسبة للأمريكيين؟ فالتعامل مع هذا السؤال مباشرة من شأنه إعطاء أفضل فرصة لتجاوز هذا التحدي، وتقدير أهمية هذه الأفكار .. مع الأخذ بعين الاعتبار أعمال كثير من الباحثين في مشروع الصفر، حيث عكفوا لأكثر من ثلاثين عاماً على إجراء بحوث مع الأطفال والكبار والمنظمات، موجهة إلى فهم وتعزيز التفكير والتعلم والإبداع.

وعلى الرغم من التباين في منظوري ريجيو إيميليا وجامعة هارفارد، فإن العمل المشترك من خلال مشروع الصفر قادر على استيعاب هذا التباين: فبينما ينظر الكثير من الأمريكيين إلى المدارس باعتبارها وسيلة لإعداد الأطفال ليكونوا مواطنين نافعين، بمساعدتهم على اكتساب مهارات محددة ومعارف وأفكار رئيسة وعادات ذهنية. ويُنظر إلى رياض الأطفال على أنها تقوم بدور الحاضن للعب واللهو أو أنها أماكن لتعلم بعض مهارات القراءة والكتابة والحساب البدائية.. فإنه في ريجيو تعد رياض الأطفال والمدارس والمراكز أماكن توثق التعلم الإنساني؛ حيث يُنصت إلى الأطفال، ويُحترمون، ويتشاركون مع المجتمع الأوسع. تستند المدارس في ريجيو إلى شبكة من العلاقات، ولا يقتصر دورها على إعداد الأطفال للحياة، وإنما تعتبر هي نفسها ضرورية للحياة. المدراس في ريجيو إيميليا هي بمثابة مواقع للأبحاث التربوية تشهد توليد الثقافة وتطويرها، بقدر ما هي مهمة لفهمنا للكيفية التي ينتج بها بناء المعرفة. ومن خلال التوثيق المنظم لتعلم الأطفال يُطَوّر الأطفال والمعلمون ثقافة المدرسة، وحيث لا تقوم مجموعات التعلم بنقل الثقافة والمعَرفة فقط، بل تخلقها وتطورها أيضاً.

وكما كان تقديم كتاب " حتى يصبح التعلُّم مرئياً وملموساً " استهلالاً بكل من هوارد جاردنر (جامعة هارفارد ومشروع الصفر) وكارلا رينالدي (ريجيو إيميليا)، فإنهما أيضاً يختتمان الكتاب بتأملات لحصاد هذه الخبرة المشتركة بين عالمين وثقافتين وخبرتين متميزتين، وحيث يقدرها " هوارد جاردنر " بأن المزيج الناتج منها أكبر من مجموع أجزائه. وتستخلص كارلا رينالدي من هذه الخبرة المتجمعة والمتطورة من خلال التفاعل بين ريجيو إيميليا ومشروع الصفر أهمية العمل بقواعد وأخلاقيات وممارسات متنوعة، ومتطابقة عند جميع المعنيين معلمين وأطفال وأسرة، مما مكنهم جميعاً من الانتقال إلى عالم يكافح فيه الصغار والكبار على حد سواء بنجاح، على ما يبدو، في مجال مشاكل التعليم في سياقات متعددة ومتناقضة؛ وبذلك أمكن جمع " قاموس خبرات " ساعد كل الأطراف المعنية بالتعليم والتعلم والثقافة على التفكير والاستنتاج ووضع النظريات والفهم والبحث وقابليات التطبيق والتغيير في عملية تعلم ونمو مستدام.

والواقع أن كتاب " حتى يصبح التعلُّم مرئياً وملموساً " هو ذخيرة علمية وإبداعية في الفكر التربوي والنفسي والممارسات والإنتاجات التربوية لبيئات تعلم.. ومجتمع تعلم..

ولثقافة مميزة للعمل في مشروع الصفر تضافراً مع خبرة ريجيو إيميليا، وإبداعات جامعة هارفـارد، ممـا يطلقون عليه "ثقافة البحث" التي تمتد جذورها إلى أكثر من سـتة عقود من الزمان.. ولا يزال الباب مفتوحاً في تنمية مستدامة للأفراد والجماعات والمجتمعات لأجيال وأجيال، وفي مجالات التعليم والعمل والأسرة والثقافة والاكتشاف والتجديد والإبداع.

إن الكتـاب، وفـي كل صفحـة، ينطق بلغـة الأطفال.. وهي مائة ومائـة ومائة! يدركها الجميع كباراً وصغاراً بكل الحواس رؤية ولمساً وسمعاً وشماً وتذوقاً، وفي حركة ونشاط، وبتلقائيـة وذاتيـة مبدعـة، وفي مرح وبهجـة.. لعالم جدير حقـاً بالأطفال.. كـم هي نزهة ممتعة ونحن نجوب كل جنبات هذا الكتاب ـ فكرية وعملية، نظرية وتطبيقية..، وفي إمتاع ومؤانسـة بالعلـم والمعرفة، وبالتعلم والتقدم..، وبلغة من السـهل والممتنع التي تنطق في كل محتـوى الكتـاب بلغة المجاز التي تنظر إليها ريجيو إيميليا على أنها ليسـت أداة بلاغية أو أسـلوب كتابة، بل باعتبارها أداة حقيقية للمعرفة، بقدر ما هي أداة فعالة وإسـتراتيجية داعمـة للتوصل إلى فهم جديد للأطفال. فالكتاب، الذي يسـتوعب كماً ما يقرب من أربعمائة صفحـة، وكيفاً كنز مكنون من الإبداع ـ يضعنا وجهاً لوجه أمام تحديات وحاجات لمراجعة فهمنا للأطفال.

المجلة التربوية

مجلة فصلية، تخصصية، محكّمة

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

رئيس التحرير: أ. د. عبدالله محمد الشيخ

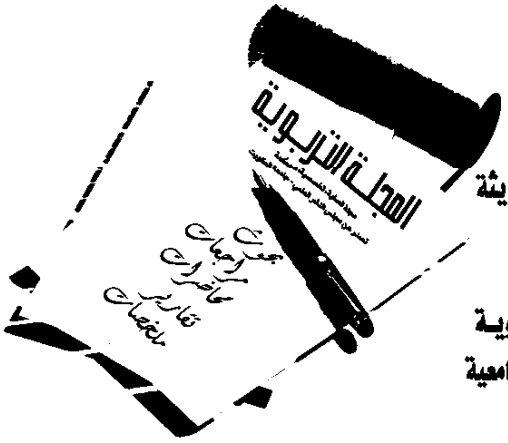

تنشر:

- البحوث التربوية المحكمة
- مراجعات الكتب التربوية الحديثة
- محاضر الحوار التربوي
- التقارير عن المؤتمرات التربوية وملخصات الرسائل الجامعية

* تقبل البحوث باللغتين العربية والإنجليزية.
* تنشر لأساتذة التربية والمختصين بها من مختلف الأقطار العربية والدول الأجنبية.

الاشتراكات:

في الكويت: ثلاثة دنانير للأفراد، وخمسة عشر ديناراً للمؤسسات.
في الدول العربية: أربعة دنانير للأفراد، وخمسة عشر ديناراً للمؤسسات.
في الدول الأجنبية: خمسة عشر دولاراً للأفراد، وستون دولاراً للمؤسسات.

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير المجلة التربوية - مجلس النشر العلمي ص.ب. ١٣٤١١ كيفان - الرمز البريدي 71955
الكويت هاتف: ٢٤٨٤٦٨٤٣ (داخلي ٤٤٠٣ - ٤٤٠٩) - مباشر: ٢٤٨٤٧٩٦١ - فاكس: ٢٤٨٣٧٧٩٤
E-mail: joe@ku.edu.kw